صوتان وأربع عيون:

المكان نفسه من جهتين

في 2010/8/3، عمدت مجموعة من الجيش الإسرائيلي، وبطريقة استفزازية، إلى اقتلاع شجرة صنوبر بري من الأراضي اللبنانية المتاخمة للحدود مع فلسطين، والغاية تمهيد المكان لتثبيت كاميرا للمراقبة. عند ذلك أطلق الجنود اللبنانيون طلقات تحذيرية في الهواء، فقام الجيش الإسرائيلي بقصف بعض المواقع العسكرية للجيش اللبناني، واندلع اشتباك بين الطرفين كانت نتيجته مقتل المقدم الإسرائيلي دوف هراري، وهو قائد كتيبة احتياط، وإصابة النقيب عزرا لاكيا بجروح، بينما استشهد الرقيب في الجيش اللبناني روبير الياس العشي، والرقيب عبد الله محمد الطفيلي، والصحافي عساف أبو رحال مراسل جريدة "الأخبار" اللبنانية، علاوة على إصابة مراسل قناة "المنار" علي شعيب بجروح بسيطة.

وقد خلخلت هذه الحادثة الدموية هدوء المنطقة الحدودية في جنوب لبنان وشمال فلسطين، وراح اسم بلدة "العديسة" اللبنانية يتردد في مختلف وسائل الإعلام، مثلما تردد اسم مستعمرة "مِسْغاف عام" (أي "معقل الشعب" بالعبرية) المواجِهة للعديسة جرّاء استنفار القوات الإسرائيلية في المكان نفسه. وفيما يلي تحقيق بصوتين؛ فقد جاء أنطوان شلحت من عكا إلى "مسغاف عام"، وجال ببصره في ذلك المكان الذي كان مكاناً واحداً ثم شطره قيام إسرائيل في سنة 1948، بينما اتجه فيديل سبيتي من بيروت إلى العديسة، وتنقل بعينيه في المكان الذي لم يعرف حاجز الحدود بين لبنان وفلسطين قبل النكبة. لقد التقت في المكان نفسه أربع عيون بعدما اخترقت الشريط الفاصل، لعلها تمكنت، في هذين التحقيقين الصحافيين، من إعادة توحيد المكان، ولو موقتاً. ■

أنطوان شلحت*

جليليّ في "مِسْغاف عام":

"معقل الشعب" لا يستقطب الشعب!

I

كل مرة يرد فيها ذكر قرية العديسة في جنوب لبنان فإن أول ما يقفز إلى الذهن - هنا في قلب الجليل – هو كيبوتس "مسغاف عام" الذي كان السبب المباشر في تمزيق أوصال أراضيها قبل 65 عاماً، وما زال الشاهد الحيّ على تشويه حيّز الجغرافيا الطبيعية فيما يسمى "منطقة الحدود الإسرائيلية – اللبنانية".

"مسغاف عام" مكان ريفي يطل على أنحاء جنوب لبنان، وعلى جبل الشيخ، وينبسط في أسفله سهل الحولة. وبعد "حادثة الشجرة" الأخيرة، في 3 آب/أغسطس 2010، كان الدخول إلى هذا المكان من مدينة عكا يبعث في النفس إحساساً بالدخول إلى معزل جغرافي، لكنه سرعان ما يتبدد حالما يطل المرء من أعلى نقطة فيه – من المطل العلوي – على العديسة وعلى قرى وبلدات أُخرى في جنوب لبنان. وفي المقابل، فإن حركة الغادين والرائحين كانت قليلة، وهم في معظمهم من سكان الكيبوتس نفسه، الذي لا يتجاوز عدد العائلات القاطنة فيه 65 عائلة لا يتعدى عدد أفرادها 260 شخصاً.

عندما تحدثت مع بعضهم لم يثر الأمر أي ريبة خاصة، وربما يعود ذلك إلى كونهم اعتادوا زيارات مندوبي مختلف وسائل الإعلام. ومع ذلك، فإن إحساس العزلة لم يبرحهم، وبدا لي مقروناً بإحساس آخر؛ بخوف يظهر غامضاً لأول وهلة، لكن دوافعه الخفية الحقيقية كامنة فيما يطلقون عليه "الخطر الآتي من الشمال"، والذي كانت حادثة 3 آب/أغسطس تذكيراً آخر به.

ولا تنكر الرواية الإسرائيلية، كما تظهر على المواقع الرسمية وفي الكراسات التي توزع على الزائرين، أن كيبوتس "مسغاف عام" أنشئ في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1945، على جزء من أراضي قرية العديسة اللبنانية، وتتباهى بأن ذلك تزامن مع اليوم نفسه الذي صدر فيه وعد بلفور بإقامة "الوطن القومي اليهودي" قبل تأسيس الكيبوتس بـ 28 عاماً. لكن من أجل تمويه طابع الكيبوتس الكولونيالي، فإن تلك الرواية تحرص على تأكيد أن ذلك الجزء اشتراه في بداية سنة 1944 الصندوق القومي لإسرائيل (هكيرن هكييمت ليسرائيل) من خلال مجموعة في البلماح من مستعمرتي تل يوسف ودفنا المجاورتين. ويتسق هذا التمويه مع ما نشهده في الآونة الأخيرة من تواتر الدعوات إلى صد المساعي التي تعرض إسرائيل على أنها كيان كولونيالي، من خلال القول إن هذه المساعي لا تنطوي على غاية تقصي الحقيقة التاريخية، وإنما هي جزء من حملة هدفها "نزع الشرعية عن إسرائيل".

كما أن اختيار اسم الكيبوتس لم يكن بعيداً عن أهداف المشروع الصهيوني الكولونيالي، فكلمة "مسغاف" العبرية تعني حرفياً، وفق القاموس الإسرائيلي، "علياء"، وتعني مجازاً "المعقل" أو "الحصن المنيع"، في حين أن كلمة "عام" تعني الشعب، أي أن اسمه يعني "معقل الشعب"، أو "الحصن المنيع للشعب".

وأكد أحد أعضاء الكيبوتس المتقدمين في السن أن كيبوتس "مسغاف عام" أقيم في هذا الموقع بالذات في إطار خطة استيطان الجليل الأعلى، التي كان في صلب أهدافها فرض حدود الدولة اليهودية شمالاً.

وبالعودة إلى أحداث التاريخ، فإن هذا التأكيد ربما يحيل، أكثر من أي شيء آخر، إلى "المفاهيم" التي كانت تتحكم في عمليات الاستيطان الصهيونية في تلك الفترة، ولا سيما "مفهوم" فرض مزيد من الوقائع الاستيطانية على الأرض. وقد طُبِّق هذا المفهوم على نطاق واسع خلال ثورة 1936 – 1939، التي اندلعت شرارتها الأولى في يافا في 20 نيسان/أبريل 1936 وامتدت إلى سائر أنحاء فلسطين. وتسببت تلك الثورة بقيام سلطات الانتداب البريطانية بتغيير سياسة الهجرة والاستيطان في البلد، وعينت الحكومة البريطانية، في نهاية المطاف، لجنة تحقيق برئاسة اللورد بيل. لكن المؤسسات الصهيونية التي خشيت إرسال أنوية استيطانية إلى مناطق بعيدة وخطرة من دون توفر القدرة على تأمين الحماية اللازمة، وافقت على خطة شلومو غيرزوفسكي [غور]، الذي أسس فيما بعد مستعمرة – كيبوتس "تل عَمَال"، والتي تقضي ببناء مستعمرات [محصنة] ذات قدرة دفاعية، محاطة بسور ويتوسطها برج مراقبة مزود بضوء كاشف [هذا الأسلوب اتُّبع في إطار تنفيذ حملة

استيطانية صهيونية واسعة النطاق في فلسطين في إبان ثورة 1936 – 1939، وأصبح يعرف منذ ذلك الحين في المصطلحات الصهيونية العبرية بـ "حوما ومغدال" أي "السور والبرج".

ولقد لبّت خطة غيرزوفسكي مطلبين رئيسيين: أولاً، أن تقام المستعمرة في غضون يوم عمل واحد؛ ثانياً، أن تتمكن المستعمرة من حماية نفسها فوراً بمساعدة حامية صغيرة إلى حين وصول التعزيزات. وكان كيبوتس "تل عَمَال" أول مستعمرة تقام ضمن حملة "السور والبرج" الاستيطانية، والتي أقيم في نطاقها ما مجموعه 55 قرية تعاونية ["كيبوتسات"] في مناطق بعيدة جداً. وهذه المستعمرات رسمت فيما بعد حدود الدولة العبرية.

في أوائل الثلاثينيات من القرن الفائت، كانت المنطقة الموضوعة نصب أعين المؤسسات الصهيونية الاستيطانية هي غور بيسان [الذي أطلق عليه في التسمية العبرية "عيمق بيت شآن"]. وكانت مؤسسة "الصندوق القومي لإسرائيل" في ذروة مفاوضات لتهويد أراضي هذا الغور والسيطرة عليها كلياً لمنع أصحابها البدو من العودة إلى الإقامة عليها، وهي أراضٍ خصبة ووفيرة المياه وتمتد على مساحات شاسعة من منطقة غور الأردن والجفتلك. وبحثت المؤسسات الصهيونية عن نواة استيطانية صلبة تستطيع تحمل مصاعب الاستيطان في منطقة نائية وخطرة مثل غور بيسان، ومن هنا، كان لا بد من إلقاء المهمة على نواة مصقولة اجتماعياً وعقائدياً. ووافقت المؤسسات الاستيطانية التي سعت للاستيلاء على الأرض، ولإقامة مناطق استيطان رئيسية داخل كتل ستشملها حدود الكيان اليهودي التي بدأت ترتسم في الحلول التي اقترحتها "لجنة بيل"، على أول نواة بين كيبوتسات حركة "هاشومير هتسعير" الاستيطانية في أراضي منطقة "تل الشوك" الواقعة على مدخل غور بيسان. وبعد الحصول على موافقة المؤسسات الاستيطانية قام أعضاء نواة "تل عَمَال" بجولة في منطقة غور بيسان، تفقدوا خلالها الموقع المقترح لإقامة "الكيبوتس" الجديد، والتقوا في أثناء ذلك أعضاء كيبوتس "بيت ألفا" المجاور، واتفقوا معهم على الشروع في تعبيد الأراضي وفلاحتها، على الرغم من أن المهندسين والخبراء الزراعيين الذين عاينوا أراضي المنطقة تمهيداً لبناء المستعمرة الزراعية، كتبوا تقريراً رسموا فيه صورة قاتمة.

إن عملية إقامة كيبوتس "تل عَمَال" كمستعمرة دائمة لم تكن، في ذلك الوقت، معزولة عن مجريات الأحداث في باقي أنحاء البلد. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1936، وصلت إلى فلسطين لجنة التحقيق الملكية البريطانية [لجنة بيل]، وجعلت مداولات اللجنة المؤسسات الصهيونية تدرك ضرورة الإسراع في فرض وقائع استيطانية على الأرض، ومن ضمن ذلك "إقامة كتلة استيطانية عبرية على أراضي غور بيسان." وفعلاً، كان كيبوتس "تل عَمَال" هو الأول في سلسلة طويلة من المستعمرات التي أقيمت في نطاق حملة "السور والبرج" الاستيطانية على حدود "الدولة اليهودية"، وخصوصاً في المناطق البعيدة. ومما ساهم في مسارعة المؤسسات الصهيونية إلى القيام بهذه الحملة الاستيطانية المكثفة، ولا سيما في غور بيسان، التخوّف من أن تمس قرارات "لجنة بيل" عشرات آلاف الدونمات التي تم الاستيلاء عليها وتهويدها في المنطقة. وقد أقيمت في نطاق حملة "السور والبرج" الاستيطانية هذه 6 مستعمرات في سنة 1936، و14 مستعمرة في سنة 1937، و17 مستعمرة في سنة 1938، و18 مستعمرة في سنة 1939.

ووفقاً للوثائق الإسرائيلية، فإن خطة إقامة مستعمرات "السور والبرج" انتهت في سنة 1939، لكن فرض حدود الكيان اليهودي في فلسطين لم يسقط من جدول أعمال الحركة الصهيونية في تلك السنة، بل سرعان ما تميز بزخم جديد في إثر مؤتمر بلتمور، الذي عقدته الحركة الصهيونية في سنة 1942، والذي تحددت غايته العملية في إقامة دولة يهودية في فلسطين.

ظل كيبوتس "مسغاف عام" بعد تأسيسه يعاني فقراً ديموغرافياً على الرغم من الموارد الكبيرة التي استثمرت فيه منذ ذلك الوقت بسبب موقعه، ولم يتجاوز عدد سكانه في أواسط الخمسينيات الـ 30 نسمة. ومما قاله لنا سكرتير الكيبوتس إن هذا الكيبوتس ما زال عاجزاً عن أن يشكل "نقطة جذب" لمهاجرين يهود من الداخل أو من الخارج، على الرغم من التغيرات التي طرأت عليه، والتي كانت ذروتها عملية خصخصته في أواخر سنة 1997. وقد اعتُمدت، منذ سنة 2006، بضعة برامج لتوسيع أحيائه، وشُرع في تنفيذ جزء منها، لكن ذلك لم يحل مشكلة فقره الديموغرافي. وفي كراسة المعلومات المتعلقة بالكيبوتس ورد تحت عنوان: "أهداف رئيسية للعقد المقبل" [العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين] ما يلي: 1 – تعزيز مناعة السكان؛ 2 – تحقيق نمو ديموغرافي من خلال توسيع أعمال البناء، أو من خلال إسكان المنازل القائمة؛ 3 – إيجاد مصادر دخل وتشغيل أُخرى [عدا المصادر القائمة، وهي أساساً زراعة الخضروات والكروم للنبيذ والسياحة الداخلية ومصنع للأدوات الطبية المساعدة]. وبالتالي يمكن القول إن "المعقل" ما زال باقياً، لكن من دون تحقيق نجاح خارق في استقطاب "الشعب"، كي يصبح اسماً على مسمى. ومن جملة "الإغراءات" التي تُعرض لتشجيع الهجرة من دون أن تحقق النجاح: إعفاءات ضريبية عالية؛ إمكان شراء الأرض بـ 31% من قيمتها الحقيقية؛ امتيازات

خاصة للمزارعين... وما شابه ذلك. فما هو السرّ إذاً؟

من هذا الكيبوتس خرج شخص اسمه نير يسود، وهو يقيم حالياً في كيبوتس "أفيكيم" في الجنوب، وقد انخرط في إثر الانتفاضة الفلسطينية الثانية في سنة 2000، في "منتدى العائلات الثكلى الإسرائيلية – الفلسطينية من أجل السلام". يقول "نير" أنه "نشأ هناك في السبعينيات والثمانينيات في ظل واقع لم تكن الحرب فيه شيئاً غير مألوف، وإن الكيبوتس هوجم مرات كثيرة بوابل من صواريخ الكاتيوشا التي أطلقتها قوات منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها في جنوب لبنان، وأذكر أننا كنا نجري إلى الملاجئ، أحياناً في الهزيع الأخير من الليل، ونحن حُفاة، ونغطي أنفسنا بلحاف. وعندما كنتُ في الصف الثاني، دخل الجيش الإسرائيلي لبنان لأول مرة [عملية الليطاني في سنة 1978]، وفي المقابل، هبطنا تحت الأرض مدة أسبوعين، تعلمنا فيهما وأكلنا، ولعبنا ونمنا في الملجأ من دون إذن في أن نُخرج أنوفنا منه. ولم يتغير ذلك الواقع إلى الآن."

ويضيف: "في السابع من نيسان/أبريل 1980، دخل الكيبوتس خمسة مقاتلين فلسطينيين واستولوا على حضانة للأطفال، وبعد معركة سقط فيها مقاتل من لواء غولاني، وجُرح فيها كثيرون، نجح الجيش الإسرائيلي في إنقاذ الرهائن. وحل محل الإحساس بأن "مسغاف عام" مكان لا يُخترق، إحساس متصل بالخوف. وبعد أكثر من عام على عملية حضانة الأطفال، حدثت كارثة أُخرى لعائلتي هذه المرة. ففي ساعات الصباح المبكرة في العشرين من تموز/يوليو 1981، في أحد أيام ما سمُي بعد ذلك "حرب الأيام العشرة"، بعد مكوث لبضعة أيام في الملجأ، خرجت أمي كي تغتسل استعداداً لخروجها إلى العمل، لكن ما إن بلغت إلى مدخل بيتنا، وقبل دخولها إليه بخطوة واحدة فقط، سقط وابل من صواريخ الكاتيوشا التي أطلقتها في تلك الساعة قوات منظمة التحرير من لبنان، وكان الكيبوتس كله مشلولاً تقريباً، وخرج قليل من سكانه للقيام بالمهمات الضرورية. ولم يمض وقت طويل حتى جمعنا والدنا، نحن الإخوة، في أسفل غرفة درج الملجأ وقال: ((أمكم ما عادت موجودة)). لا أذكر أنني بكيت، ربما لأنه لا يجوز لابن الكيبوتس أن يبكي، وربما لأن الولد الذي لم يتجاوز الحادية عشرة لا يفهم حقاً ما يحاول أبوه أن يقول له. العجيب أن الشعور بالانتقام لم يكن جزءاً مني. وعلى نحو ما، حاولت بعد بضعة أعوام، أن أُدخل المنطق في الفقدان، وأعتقد أن هذه المحاولة ساعدتني على البقاء، وأنها المُحرك الذي دفعني إلى الانضمام إلى المنتدى المذكور."

(*) كاتب وصحافي فلسطيني مقيم بمدينة عكا.

وفي سياق متصل، حصلتُ خلال جولتي في "مسغاف عام" على نماذج من كتابات طلاب يهود عُرضت في مدرسة "بساغوت" في كيبوتس "يار – أون" في أعالي الجليل بعد شهرين من انتهاء حرب تموز/يوليو 2006، وذلك في إطار مشروع أُطلق عليه: "طلاب أصبع الجليل يكتبون عن الحرب"، وإليكم ترجمة لثلاثة نصوص منها:

1 – ليتني كنت شجرة محروقة،
فثمة مَن يرى ما عليها من الخارج،
وعندي مَنْ لا يرى ما في الداخل.
(طالب في الصف الثالث)

2 – مرّ أكثر من شهرين ولا أزال خائفة،
خائفة أن أموت، خائفة أن أبكي، خائفة من نفسي.
لن تعود الأشياء إلى ما كانت عليه، ولن أتعافى مطلقاً.
لا أريد أن أعيش حياة الحرب، حياة الأموات والبكاء.
لا أريد أن أموت،
أريد أن أحيا
لكن ليس مثل هذه الحياة.
أحاول ألا أشعر بسوء، لكني لا أفلح بذلك.
الكوابيس، البرق، الرعد، الأشياء كلها تذكرني بالحرب.
حتى ما قبل ثلاثة أشهر ونصف شهر
نظرت إلى لبنان،
وتحديداً إلى مارون الراس، كما لو أنه مجرد جبل،
أمّا الآن، فأخاف أن أنظر، أخاف أن أرى،
أخاف من الخوف ذاته،
أخاف أن أرى الحقيقة.
لا أريد أن أعيش حياة الحرب، حياة الأموات والبكاء.
لا أريد أن أموت،
أريد أن أحيا،
لكن ليس مثل هذه الحياة،
لأني ولدت للسلام!
الطالبة ماي نير [الصف الخامس]

3 – في الخارج يرون إشارات الحرب.
الأشياء كلها محروقة ومكشوفة، تصرخ فتراها العيون.
لدينا أشياء أيضاً في الداخل، في القلب،
الأفكار، الذكريات،
الأحاسيس والمخاوف.
الأشياء كلها في الداخل.
[بلا توقيع] ■